

صورة إيطاليا في المصادر التونسية خلال القرن التاسع عشر "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" نموذجاً

د. محمد صلاح حقي

أستاذ تاريخ تونس والجزائر في العهد العثماني
جامعة القيروان
الجمهورية التونسية



مُلخَص

يقدم هذا البحث محاولة لدراسة تاريخ أوروبا من خلال المصادر التونسية، وقد اخترنا كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" لمحمد بيرم الخامس نموذجاً نظراً لكون الرجل زار إيطاليا ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعادات أهلها وتقاليدهم، فكان شاهد عيان ومصدراً موثقاً منه لاستجلاء معالم تاريخ إيطاليا خلال القرن التاسع عشر للبحث في أسباب تقدم هذه البلدان والمدن الأوروبية، ومقارنة عادات أهلها بعادات أهالي البلدان الإسلامية في محاولة للمقارنة بين الحضارات، ولتكون حافزاً لبلدان العالم الإسلامي للنسج على منوالها، فهي إذن محاولة في التاريخ المقارن. لقد كان محمد بيرم الخامس مؤرخاً، وعالم جغرافيا، وعالم اجتماع، ورحالة، وهو أمر قلما نجده لدى بعض الكتاب الآخرين، فكان مؤلفه "صفوة الاعتبار" جامعاً ومفيداً، والحق أنه لولا مرض محمد بيرم الخامس وسفره لتلقي العلاج، ما ظهر كتاب "صفوة الاعتبار"، فكان المرض سبباً في كتابة أهم مصدر في التاريخ الحديث.

كلمات مفتاحية:

تاريخ البلدان، مناخ إيطاليا، الاقتصاد الإيطالي، المجتمع الإيطالي، المرأة الإيطالية، المدينة الإيطالية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ أبريل ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٩ أغسطس ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد صلاح حقي. "صورة إيطاليا في المصادر التونسية خلال القرن التاسع عشر: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار نموذجاً". - دورية كان التاريخية - العدد الرابع والثلاثون: ديسمبر ٢٠١٦. ص ١٨٥ - ١٩٤.

مُقدِّمة

"صفوة الاعتبار" كتاب شامل ما كان ليصلنا لولا مرض محمد

بيرم الخامس

يعتبر محمد بيرم الخامس^(١) ومؤلفه "صفوة الاعتبار" بمستودع الأمصار والأقطار^(٢) مصدرًا هامًا لدراسة تاريخ البلدان وجغرافيتها سواء العربية أو الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، فسفر الرجل للتداوي جعله يمر بالعديد من البلدان ويصفها وصفاً دقيقاً، أي أن المرض هو الذي قاده إلى إنتاج هذا المؤلف، فلولا المرض - إذن - ما كان ليصلنا هذا المصدر الهام من مصادر القرن التاسع عشر، وما وصلنا وصفاً دقيقاً لإيطاليا محور موضوعنا، وقد عبر عن ذلك في حديث في باب دواعي السفر عندما قال: "فصل في سفري إليها (يقصد إيطاليا) وما رأيته بها لما تكاثرت بي المرض العصبي في صائفة ١٢٩٢ هـ... وأشارت علي

الأطباء بالسفر إلى أوروبا عازمت على ذلك في شوال سنة ١٢٩٢ هـ"^(٣)، وقد جمع بيرم الخامس في مؤلفه بين صفات المؤلف: من خلال ذكر تواريخ نشأة البلدان وسيرورتها التاريخية وعلاقتها ببعضها البعض - والجغرافي: باعتبار أنه وصف الأنهج والأزقة والشوارع والمناخ والتضاريس وغيرها - والرحالة وعالم الاجتماع: لما وصف الحياة الاجتماعية ودرسها دراسة متأنية فوصف نمط العيش والأكل واللباس والدين من خلال تعرضه إلى معمار المساجد والكنائس وغيرها - والاقتصادي: من خلال تناوله لاقتصاديات البلدان سواء فلاحتها أو صناعتها أو تجارتها - فالرجل لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتناولها بالدرس، فجاء مؤلفه كتاباً شاملاً وصف فيه تقريباً جميع القارات وبالتالي كتاب عالمي فقدم لنا وصفاً لدول عربية وإسلامية وإفريقية وأخرى أوروبية، فالمرض إذن وإن كان وبالاً على محمد بيرم الخامس، إلا أنه كان

في إيطاليا يبلغ ارتفاعه (٩٥٢٠) قدمًا على مستوى سطح البحر، وجبل فيلنيو، وجبل الفوزوفيو قرب نابلي ويبلغ ارتفاعه (١٢٠٠) مترًا، وجبل اتنا في سيسيليا وارتفاعه (٣٣١٣) مترًا، وهو جبل يتميز بالثلوج، وجبل الترنبل في جزر ليبيري، ويؤكد محمد بيرم الخامس أن هناك جبال بالقرب من نابلي تقذف بخارًا كبيرًا وتسمى سلفتارو، كما أن هناك جبل بالقرب من ليفورنو يقذف بخارًا مائيًا ويسمى سوفيو، وتتميز إيطاليا أيضًا بالجبال البركانية والبحيرات مثل بحيرات رسيمين، وبروسيانو، وبلنسيا لكنها بحيرات في الجبال كانت في الحقيقة جبال بركانية^(٥) حلت محلها فوهة النار.

توجد بإيطاليا أيضًا -حسب محمد بيرم الخامس- أنهار عدة، ولكنها ليست كبيرة نظرًا لقربها من البحر وأعظمها نهر "بو" الذي يفصل بينها وبين النمسا، ونهر "تير" الذي يصل إلى روما، ونهر "أرنو"، ونهر "أديج" الذي يمر بفرنسا، أما وظيفة هذه الأنهار فيبدو أنها محدودة حسب محمد بيرم من حيث أنها لا تحمل السفن، وإنما فقط القوارب الصغيرة باستثناء نهري "بو"، و"أديج" وهذا الأخير يحمل السفن من بلد تيرنتو إلى البحر. ويتميز نهر "بو" بجزره الرملية، فالأنهار في إيطاليا لا تلعب دورًا كبيرًا في التجارة مثلًا عدا النهرين المذكورين سابقًا، ويعود ذلك إلى توسطها للبحر فهي شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، لذلك يلعب البحر الدور الرئيس في ربطها ببقية البلدان المحيطة بها باستثناء تلك الواقعة جنوبها فترتبط معها عن طريق البر، كما توجد بإيطاليا ترع صغيرة أشهرها الترعة الواقعة بين "بيزة"، و"ليفورنو"، وكذلك التي تصل بين نهري "التيفر"، و"أرنو" كما توجد بها العديد من البحيرات مثل "لانوماجوري" أي الكبرى، و"كومو"، و"غاردا"، و"ليكو"، و"لوغانو"، و"ايزيو".^(٦)

٣/١- المناخ: متوسطي شبيه بمناخ تونس

مناخ إيطاليا حسب "صفوة الاعتبار" هو مناخ متوسطي يميل إلى "الحر المعتدل"،^(٧) ويتميز بطول فصل الصيف في الجنوب مع هبوب رياح السموم في بعض الأحيان مما يؤدي إلى الجفاف على غرار مناخ تونس بينما يميل الطقس في الشمال إلى البرد، وتتميز إيطاليا بهواء نقي عتّر عنه صاحب الصفوة "بالجيد" رغم أن المناطق الوسطى كانت تحتوي على مستنقعات تسببت في العديد من الأمراض خاصة في فصل الصيف منها روما وفينيسيا وقرب نهر البو، وولاية كلابريا الجنوبية، وليفورنو مما أدى إلى حصول هجرات سكانية من تلك المناطق وأفرغها من السكان، ولكن المملكة الإيطالية قامت بتجفيف تلك المستنقعات وتهيئتها فتحوّلت تلك المدن إلى مناطق جاذبة للسكان والاعمار. ويبدو أن محمد بيرم الخامس استغل وجوده في إيطاليا ليطالع على تاريخها سواء القديم أو الحاضر إيمانًا منه في التواصل بين الحقب التاريخية، وقد أفرد عنصرًا كاملًا

له وجه إيجابي وهو إنتاج مثل هذا المصدر باعتبار أن الرجل كان شاهد عيان (Un témoin Oculaire) فجاء الوصف دقيقًا، وما كان ليكون كذلك لو كتب محمد بيرم الخامس تاريخ هذه البلدان انطلاقًا مما سمح على غرار ابن أبي الضياف الذي كتب تاريخ العديد من البلدان انطلاقًا من التقارير الرسمية السياسية فكانت شهادته محل جدل.

أولاً: جغرافية إيطاليا ووسطها الطبيعي من خلال "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"

١-١- جغرافية إيطاليا وموقعها:

تقع إيطاليا - حسب ما جاء في "الصفوة" - في القسم الجنوبي من أوروبا وهي شبه جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، يحدها شمالاً اسفيسرا (يقصد سويسرا)، ومن الشمال الشرقي النمسا، والشمال الغربي فرنسا، ومن الغرب والجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق بحر البنادقة، وتتخذ شكلاً مستطيلاً من الشمال إلى الجنوب يميل إلى الشرق، وقد شبهها محمد بيرم الخامس بـ "جزمة ذات عقب ومهماز وقبالة منتهى أصابع القدم جزيرة صقلية المسماة الآن بسيسيليا يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج مسينا...".^(٨) وتقع إيطاليا حسب محمد بيرم الخامس من شمالها إلى جنوبها بين خط عرض ستة وأربعين درجة وأربعين دقيقة شمالاً وخط عرض سبعة وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي أي شمال خط الاستواء، وتنطلق جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة إلى ستة عشرة درجة وخمس دقائق ونهاية طولها قرابة ألف ميل^(٩) من جبل مون بلان إلى رأس سبارتيفينتو، ويختلف عرضها من جهة الشمال نحو ثلاثمائة وستين ميلاً، ومن جهة الجنوب قرابة مائة وخمسين ميلاً، وفي بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلاً فقط.^(١٠)

ما نلاحظه؛ أن الوصف كان علميًا دقيقًا لموقع إيطاليا حسب خطوط العرض، فالرجل كان عالم جغرافيا بكل معنى الكلمة، ولم يكن يصف لنا إيطاليا وصفًا أدبيًا على غرار العديد من الكتابات الأخرى التي تشبه كتب الأدبيات، فهو لم يعقه المرض على استغلال هذه الرحلة لتقديم مادة علمية جيدة في تلك الفترة، والملاحظ أيضًا أن حدود إيطاليا لم تتغير اليوم حيث حافظت على موقعها كما وصفها لنا محمد بيرم الخامس خلال زيارته لها في القرن التاسع عشر، كما تطرق محمد بيرم الخامس إلى أهمية الجزر التي تتمتع بها إيطاليا على غرار صقلية وسرانيا وبنتلريا.

٢-١- الوسط الطبيعي في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر: (تضاريس تغلب عليها الجبال)

تتميز إيطاليا حسب صفوة الاعتبار بتنوع تضاريسها، ولكنها تغلب عليها الجبال وتتميز هذه الجبال بالتنوع هي الأخرى سواء من حيث الارتفاع أو النوعية مثل: الالب، وكورنو، وهو أعلى قمة

للحديث عن تاريخ إيطاليا القديم والجديد يقصد المعاصر لفتوته.^(١٠)

٤/١- الغطاء النباتي:

ذكر محمد بيرم الخامس الغطاء النباتي في الجهة الشمالية باعتبار أنها - أي الغابات - مهمة وغير منتظمة ومتفرقة في الجهة الجنوبية - حيث تكثر الغابات مثل الصفصاف والدردار وهي تشبه غابات تونس،^(١١) ولم يدقق محمد بيرم الخامس في هذا الشأن بل أتى عليه بعجالة، ولسنا ندري هل لجهل بالأمر أم لقلة الغطاء النباتي في إيطاليا، رغم أن الاحتمال الثاني لا يستقيم خاصةً عندما نشاهد حجم الإنتاج الفلاحي في البلاد مما يوحي بثراء التربة، وبالتالي من المفترض أن يكون الغطاء النباتي هامًا أيضًا.

ثانياً: الاقتصاد الإيطالي خلال القرن التاسع عشر: (فلاحة وصناعة هامة ومتنوعة وتجارة نشيطة)

١/٢- الفلاحة: إنتاج متنوع ووفير

أ- إنتاج متنوع ووفير

تتميز إيطاليا في القرن التاسع عشر بأهمية فلاحيتها نظرًا للظروف الطبيعية الملائمة التي تتمتع بها البلاد من تضاريس ومناخ من كثرة الأمطار ونوعية التربة الجيدة، ونظرًا أيضًا لاعتناء الإيطاليين بهذا المجال. وقد مارس الإيطاليون فلاحة عصرية من خلال إتباع طريقة التسييج التي ظهرت في بريطانيا والتي تمثل في تقسيم الأراضي الفلاحية بواسطة الأشجار وتخصيص مساحات متعددة من الأرض لممارسة أكثر من نشاط فلاحي مثل الغلال والأشجار والزرع في القطعة نفسها مقسمة بطريقة محكمة ويمارس الإيطاليون الفلاحة العلمية^(١٢) التي تدرس في مدارس مختصة وتعتمد الأسمدة الكيماوية في تجويد نوعية المنتج، وعبر محمد بيرم الخامس عن المنتجات الفلاحية الإيطالية بالنبات.^(١٣) ومن خلال دراستنا المتأنية لهذا الباب تأكد لدينا أنه يقصد الإنتاج الفلاحي أي المقصود ليس الغطاء النباتي كما يتبادر إلى أذهاننا، ومن خلال الوصف الذي قدمه الرجل تتجلى لنا القيمة الفلاحية لإيطاليا والقيمة الفلاحية متأتية من المناخ المشجع على الفلاحة والتضاريس الملائمة ونوعية التربة الجيدة.

فقد ذكر بيرم الخامس كل المنتجات الفلاحية تقريبًا على غرار الحبوب مثل القمح والشعير والذرة وتنتجها كل الجهات، وهذا ربما يعود إلى الرطوبة التي تتميز بها كافة أرجاء إيطاليا نظرًا لكونها شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، كما تنتج إيطاليا البطاطس ونبات التكروري، وهذا النبات يصنع منه الحبال، ولسنا ندري هل المقصود هو نوع المخدرات الذي انتشر في تونس خلال الحقبة الاستعمارية، وكان يزرع في الجزائر من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية أم نبات آخر نجهله؟ ومن المنتجات الأخرى التي تتميز بها إيطاليا خلال القرن التاسع

عشر هي الكتان والقطن والعنب. ويؤكد محمد بيرم الخامس على انفراد الجهات الجنوبية بالبردقان (يقصد البرتقال)، والموز والنخيل، والهندي (التين الشوكي)، والتبغ، وقصب السكر، غير أن النخيل لا يثمر التمر حسب وصفه. أما في الجهات الشمالية فيذكر محمد بيرم الخامس الأرز، والزعفران، والقسطل، والحبّة الحلوة، والجوز، والزيتون، والتفاح، والكمثري، والأجاص، والتوت، والتين، واللوز، والفندق، وعروق رُب السّوس. هذا الإنتاج المتنوع والوفير جعل من إيطاليا بلدًا ذو أهمية كبرى في أوروبا.

ب- الإنتاج الحيواني في إيطاليا: (متنوع شبيه بالإنتاج التونسي)

تتميز إيطاليا خلال القرن التاسع عشر بتنوع ثروتها الحيوانية حسب ما وصلنا من وصف في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" فمنها الخيول ومنها الطيور، ومنها الأسماك، ومنها الحشرات، وقد قسمها محمد بيرم الخامس إلى حيوانات وحشية وأخرى أليفة أو أهلية، أما الخيول فيمكن ذكر الخيل غير أنها قليلة وأحسنها في فينيسيا، وفيها نوعان قصير جدًا ووحشي ويوجد خاصةً في جزائر سردينيا، ومنها العادي، كما يمكن ذكر البغال وخاصةً في الجهات الجنوبية، والحمير، والبقر، والمعز، والضأن، ولو بقلّة، والجاموس. وأما الحيوانات غير الأليفة أو الوحشية فقد ذكر بيرم الخامس الخنزير، والضبع، والثعلب، والذئب، والخنزير البري، وبقر الوحش، والدب. وأما الحشرات فقد اقتصر الخبر على دود الحرير، وأما الطيور فذكر النحل وبقية الطيور الموجودة في تونس حسب وصفه، ولكنه ركز على طائر الغيزان وأغلبه أبلق اللون بين الأسود والأبيض، وهو أكثر هذه الطيور التي شاهدها محمد بيرم الخامس، وهو طائر ثقيل الطيران وحجمه أكبر من الحجل وأصغر من الدجاج، وفيه أنواع حضرية كبيرة، ولها ألوان جميلة مفضضة ومذهبة، وهنا ربما يتحدث محمد بيرم الخامس على الطاووس أو نوع من الحجل يسمى عندنا في تونس بـ "حجل بيشكو"، أو "الحجل العربي".

وأما الحشرات، فقد أشار محمد بيرم الخامس إلى أنها من النوع الذي يوجد في الأقاليم الحارة خاصةً الجنوبية، لكنها حسب وصفه ليست "بشديدة الخبث" كما حشرات أفريقيا،^(١٤) ويقصد بالخبث الإساءة، كما تطرق المؤلف إلى حيوانات غريبة على حد تعبيره تمثلت في كلاب تربي عند قسيسين في جبل سان برنانتو شمال البلاد أين تكثر الثلوج، تعلق في رقابها أواني فيها أكل وتسرح في المنطقة عليها تجد شخص على شفا الهلاك فتقترب منه وتمكنه من الأكل الذي في الإناء فتنتقذه من الهلاك، فإذا رافقها فيما بعد ذلك الرجل إلى منزل صاحبها فإنها توصله إليه، وإذا امتنع تعود وتدل صاحبها على مكانه، فهي كلاب لفعل الخير ويمتنع القسيسون على بيع الإناث منها حتى تبقى خاصة به.

تتنوع الصناعة في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر، وهي صناعة تفي بحاجيات البلاد رغم قلة المعامل، ومن بين الصناعات التي ذكرها محمد بيرم الخامس معامل السلاح بكافة أنواعه، ومصانع لإنشاء السفن والبواخر المدرعة، ومصانع للتحليلات الكيماوية، وللعطور، والشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود، ومعامل لصناعة الورق، وأخرى لغزل النسيج، وخاصةً الشاشية والقطن، وآخر لأنواع المنسوجات الحديدية، ومنها المسمى بالامبرا، والقטיפه، ومعامل للطرز، ومعامل للزجاج والفخار والعقيق (نوع من الأحجار)، والزهور الصناعية، وآلات المرايا المكبرة، وآلات الموسيقى، وخاصةً صناعة الأوتار المشهورة بها نابلي، ومصانع للكراريس (أي العربة المجرورة بالخيول التي تسمى بالكروسة)، كما اشتهرت إيطاليا بصنع الأحذية وسائر الأتعة (جمع نعال)، والخياطة، ونحت المرمر ونقشه، وصناعة المرجان، والصبغة، والمزاييك أي الفسيفساء. نلاحظ إذن صناعات مختلفة في إيطاليا رغم أن محمد بيرم الخامس قلل من أهميتها لما قال أن المصانع قليلة، وهذا يدل على مدى التقدم الذي شهدته إيطاليا في الصناعات في القرن التاسع عشر، ولاشك أن تطور الصناعة ناتج عن تطور الفلاحة الإيطالية في تلك الفترة.

ب- موارد معدنية وطاقة متواضعة

على عكس الإنتاج الفلاحي والحيواني، فإن إيطاليا لا تحتوي على معادن كثيرة حسب ما جاء في وصف محمد بيرم الخامس حيث يقول: "... ليس فيها معادن كثيرة ولا غنية..."^(١٥) باستثناء الفحم الحجري وبكميات قليلة موجودة في التوسكانا أي في وسط إيطاليا وقرب مسينة من جزيرة سيسيليا في الجنوب، علاوة على نوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجري، كما يوجد فيها الحديد المنتشر في عدة جهات مثل المبارديه ويقصد (Lombardy) في شمال إيطاليا وسردينيا في الجنوب وكلابريا وجزيرة ألبا المحاذية لجزيرة كورسيكا في وسط البلاد، كما توجد بإيطاليا مادة النحاس خاصةً في جبل لمبارديه وفي فينيسيا، وتوسكانيا في شمال البلاد، وفي ألبا، و يوجد الرصاص في عدة جهات أيضًا، ومعادن الزاوق، والزنك، واتمونيو، والمنغنيز، والكبريت، ومعظمه في سيسيليا. وأما الطاقة فتقتصر على زيوت البترول أي النفط. كما يتميز المجال الإيطالي حسب وصف محمد بيرم الخامس بكثرة الحجارة وتنوعها، ففيها الرخام الأبيض الصفاف الذي تصنع منه التحف، وفيها المرمر الأحمر والرخام الأسود، والبرسلان، والطين الملون، والمرمر الرفيع، والرخام الأبيض المعتاد،^(١٦) كما تعتبر إيطاليا من منتجي مادة الملح والمعادن الملحية الأخرى، ومعدن التنكار الذي يستغله الصاغة.

أ - تجارة رأسمالية من أهم ركائز الاقتصاد الإيطالي في

القرن التاسع عشر

تعتبر التجارة من أهم ركائز الاقتصاد الإيطالي في القرن التاسع عشر حيث عرف الإيطاليون بمهارتهم في هذا المجال، وهذه ليست ميزة الشعب الإيطالي فحسب، بل كل الأوروبيين حسب محمد بيرم الخامس والسبب الذي جعلهم ينجحون في ذلك هو تكوين الشركات، إذ أموال الواحد منهم لا تكفي للإشعاع تجاريًا، لذلك كَوّن الإيطاليون شركات وأسّسوا لها فروعًا في كافة الأقطار فيمتلك الإيطاليين عقلية رأسمالية منذ القرن التاسع عشر، وإبداعهم في التجارة له جذورًا تاريخية، حيث كانت إيطاليا مهديًا للمركنتيلية العالمية. ويعتمد الإيطاليون على الصحف الخبرية وأوراق وكتب يرسلونها عن طريق رسل لاكتشاف تجارة البلدان والأقطار الأخرى، وهم بمثابة الممثل التجاري اليوم، فهم إذن يقصدون باقي الشعوب للتعريف بتجارهم وبيعها هناك، وتتكفل الدولة بحماية التجار والشركات وأموالهم، كما تلعب البنوك دورًا هامًا في العملية التجارية من خلال إقراض التجار الأموال في صورة عدم قدرتهم على توفير الأموال اللازمة للتجارة وقد سماها محمد بيرم الخامس "ديار الصياغة"^(١٧).

والبنوك أنواع، إما أن تكون خاصة تعود بالملكية لفرد أو عائلة، أو عمومية أي ملكًا للدولة، ووجود هذه البنوك في إيطاليا في القرن التاسع عشر هو دليل على أن تلك الدولة اعتمدت النظام الرأسمالي مبكرًا، وبطبيعة الحال فإن القرض عادةً ما يسترجع بفائض لفائدة تلك البنوك، أي أن البنوك لها استثمارات في هذا المجال، وهذا الفائض سماه محمد بيرم الخامس "ربا" ويبلغ ستة بالمائة كل سنة، وتكون العملية منظمة بقوانين لا يمكن لأي كان تجاوزها أو اختراقها، فكل البنوك خاصة كانت أو عمومية هي مراقبة من قبل الدولة، والبنوك أنواع منها ما هو مختص في الفلاحة ومنها ما هو مطلق، وأما التداول بين التجار والناس فيكون عن طريق أوراق أو حوالة تحمل مقدار المبلغ عوضًا عن النقد تقريبًا تشبه الصك على أن تحدد مدة القبض بتسعين يومًا، ويمكن أن يكون أقل أو أكثر، وفي كل مدينة توجد بورسى (يقصد بورصة أوراق مالية) للمناداة على المتاجر العالية -يقصد للمضاربة بالأسهم- وتفتح أبوابها بعد الزوال من كل يوم بضع ساعات فقط يدخلها المضاربون الذين سماهم محمد بيرم الخامس بالسماصرة، وهناك من التجار من يربح في المضاربة، وهناك من يخسر فعليه انتظار ارتفاع الأسعار ربما في اليوم الموالي لتعويض خسارته.

ب- دور البريد والسكك الحديدية في التجارة والنقل والتواصل

أشار محمد بيرم الخامس إلى أن أكثر الطرق المعتمدة في نقل البضائع هي السكك الحديدية غير أن هذه الوسيلة غير مجدية باعتبار أنها تمر فقط على المناطق الأكثر عمرًا، لذلك فكر الإيطاليون في بناء طرقات صناعية تتفرع عن السكك الحديدية وذلك لتسهيل نقل البضائع، فكان المجال الإيطالي في القرن التاسع عشر مترابطًا ببعضه البعض، ومن أبرز وسائل الاتصال وأشهرها في إيطاليا في القرن التاسع عشر هو البريد والتي اعتبرها محمد بيرم الخامس من أنفع وسائل التجارة والعمران، وتتكفل الدولة بذلك من خلال تخصيص أماكن في المدينة لوضع المكاتب مقابل أجرة يدفعها مَنْ يريد إرسال مكتوب من خلال شرائه بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة يلصقها على المكتوب (هي بمثابة الطابع الجبائي اليوم)، ويكتب عليها اسم وعنوان المرسل إليه لتصله عبر الرتل الذي يخصص لها مركبة خاصة بها، ومستخدمون يتكفلون بتوزيع المكاتب أو الرسائل بعد فرزها أثناء سير الرتل قبل وصوله إلى المدن المعنية ويتم تسليمه إلى مستخدمين مكلفين بتوزيع الرسائل في تلك البلدة.

وإذا صادف وجود مكتوب غير خالص الأجرة، فإن المستخدم يوصله للمرسل إليه، فإذا دفع هذا الأخير الأجرة وتكون مضاعفة يسلمه المكتوب، وإذا امتنع يرجع إلى محل البريد ويحفظ فيه مدة ثلاث أشهر، ثم يتم فتحه، فإذا وجد به اسم المرسل وعنوان محله يرجع إليه، وتؤخذ منه الأجرة مضاعفة، وإذا تعذر الحصول على الاسم والعنوان، فإنه يتم حرقه، وإذا لم يتم العثور على المرسل إليه يرجع المكتوب إلى باعته دون أداء أجرة، وإذا كان المكتوب ذو أهمية كبرى فإنه يختم عليه بالشمع "خمسة"، أو علامة أخرى، ويؤخذ من صاحب البريد حجة في إيصاله (تشبه تقريبًا الإعلام بالوصول عندنا اليوم) مقابل أجر مضاعف، ولا يُسَلَّم المكتوب عندئذ إلا للمعني بالأمر، وإذا تأخر الرتل الذي لا يعود إلى الدولة عن الموعد المحدد لوصول البريد فيتعرض لعقوبة مالية عن ذلك التأخير، بينما تكون أجرة الصحف المكتوبة والكتب زهيدة وهو ما يعني تشجيع القراءة هناك.

ويتميز الرتل بانضباطه سواء كان مخصص لنقل البريد أو المسافرين، ويحمل رقع مكتوب عليها تاريخ الانطلاق من كل بلد والوصول وتوقيت الوقوف بكل محطة والذي لا يتجاوز نصف ساعة عند الاستراحة لتمكين الإطار العامل بها والمسافرين من تناول الأكل، وأما التوقف العادي لعودة الركاب فلا يتجاوز العشرة دقائق وأقلها دقيقتين بالركاب، وتوجد في المحطات محلات تجارية تبيع الأكل والشرب بأثمان باهظة، ويحتوي الرتل على بيوت منفردة خصصت للنوم مقابل دفع معلوم إضافي قدر بعشرة بالمائة، كما يوجد به أيضًا بيوتًا للاجتماع وغرف انفرادية مع إضافة ثلث المبلغ.

وعومًا؛ لعبت وسائل النقل الحديدية أو البحري دورًا كبيرًا في نقل المسافرين والتجارة من خلال تقريب البضائع وسرعة وصولها من مكان لآخر وسرّعت في ربح التجار، حيث كان تاجر الصوف في القديم لا تأتيه السفينة الشراعية المحملة بألف قنطار إلا بعد أشهر، وهو لا يبيعها إلا بعد عدة أشهر، فيربح فيها في السنة عشرين في المائة على أقصى تقدير، بينما أصبحت البضاعة تصل في غضون أسبوع فيبيع التاجر بضاعته بربح يقدر بعشرة بالمائة في الشهر، مما يعني أنه يوفر حوالي (١٢٠) بالمائة من الربح خلال سنة أي بفارق (١٠) بالمائة، ولا يقتصر دور السكك الحديدية على ربط مدن إيطاليا ببعضها البعض، وإنما أيضًا ربط إيطاليا بالممالك المجاورة^(١٨) مما ربط أجزاء أوروبا وجعلها كالبلد الواحد من حيث سهولة الانتقال من مملكة إلى أخرى.

ج- أطراف التبادل التجاري مع إيطاليا وعلاقة التجارة بالسياسة: (التجار مصدر للخبر السياسي)

أبرز أطراف التبادل التجاري مع إيطاليا هي ما عبر عنها محمد بيرم الخامس بالممالك السبع الكبيرة وهي: الأستانة، وباريس، ولندن، وبرلين، وفيينا، وروما، وسان بطرس بورغ^(١٩)، وتتم المبادلات عبر الأرتال أي السكك الحديدية، وتتأثر الأسعار بالتحويلات السياسية في هذه الأقطاب التجارية الكبرى، وعادةً ما يستفيد التجار من الأحداث السياسية خاصة الأزمات منها للرفع في الأثمان، فتراهم يختلقون في بعض الأحيان الإشاعات السياسية، فتتلقفها الصحف وتشرها فهم مصدر الخبر باعتبار أنهم يتنقلون من بلد إلى آخر وينقلون معهم الأخبار، فلم تكن هناك وسائل متطورة للاتصال في إيطاليا لتلقي أخبار المدن البعيدة. كما يمكن أن تؤدي هذه الأخبار السياسية إلى حصول خسائر في التجارة. أما أبرز البضائع في إيطاليا، فهي الصوف الذي يستعمل في معامل النسيج البخارية، والحريير غير المصنوع، والدقيق، وأنواع العجين المصنوع، والحبوب، والحيوانات المأكولة، والجلود، وزيت الزيتون، والكبريت، والمرمر، والرخام الأبيض، و الكتان والحشيشة المعروفة بالتكروري، والمنسوجات الحريرية، والاعطار، والتبن المصنوع منه كراسي، والحجر مثل حجر سيسيليا، والمعادن وتتوجه هذه المواد إلى جميع الممالك، وبصفة أخص إلى النمسا وفرنسا^(٢٠). وأما التجار فهم من أبناء البلد وكذلك أجانب.

د- دور البواخر في التواصل والتجارة

إذا كان للسكك الحديدية دورًا هامًا في الاتصال، فإن البواخر تلعب هي الأخرى دورًا مهمًا سواء في نقل البضائع أو المسافرين أو النقل البريدي والتجارة، حيث تتفق الدولة مع إحدى الشركات التي تملك بواخر معدة للتجارة على مدار السنة مقابل مقدار يتم الاتفاق عليه مسبقًا، وتلتزم هذه الشركات باحترام مواعيد انطلاق البريد ووصوله، وإذا خالفت المواعيد فإن صاحب الباخرة مطالب

ومن بين علامات قلة الحياء عند محمد بيرم الخامس رقص الفتاة مع الرجال أمام أعين والديها، وأيضاً من خلال مخاطبة البنت لزوجها أو لخطيبها و"مفاكته" أمام والديها،^(٢٧) وهو أمر يعتبره محمد بيرم الخامس منافياً للأخلاق، فالرجل كتب في القرن التاسع عشر وفي تلك الفترة لم تكن مثل هذه الظواهر منتشرة في تونس، ومن بين العادات السيئة عند الإيطاليين حسب محمد بيرم الخامس غناء النساء حيث ينظم أحد الأعيان حفلة في منزله ويدعو له الأصدقاء وتتكفل ابنته أو زوجته أو إحدى النساء المدعوات من الأعيان بالغناء و ترقص مع الرجال "على أشكال شتى" من معانقة ومخاصرة وغيرها، ويعتبرون ذلك من باب الإكرام ولا إثم فيه، وهو ما يتنافى مع العادات الإسلامية.^(٢٨)

وهي عادات استهجنها محمد بيرم الخامس ورفضها نظراً لكون الرجل عاش في بيئة تونسية إسلامية محافظة، ولم يكن على علم بالعادات الغربية لاسيما الإيطالية، ولكنه لو عاش في زمننا لرأى التقاليد نفسها قد انتشرت في البلدان العربية الإسلامية، كما يعتبر رقص الرجال من الأعيان مع النساء أمراً عادياً بينما يرفض غناء الرجال. وهذا ناتج عن كون الرجل عاش في بيئة شرقية محكومة بعادات وتقاليد تختلف عن نظيرتها الغربية. ومن عادات الرجال في إيطاليا حسب صفوة الاعتبار هو حملهم للآلات الحربية أي السلاح الصغير والخفيف ولكن دون الكشف عليه، فالمجتمع الإيطالي هو مجتمع مسلح، ويستعمل السكان كثيراً الخيل سواء كانوا رجالاً أو نساء، غير أن ما يميز المرأة أنها تركب السرج دون فتح رجلها ولكنها تثنى رجلها اليمنى على مقدمة السرج، وتضع رجلها اليسرى في الركاب.^(٢٩) ومن بين عاداتهم عند المصافحة هز اليد وقول "يوم حسن"، أو "ليل حسن"، وتقبيل فم القريب، أو الحبيب عند الإقدام على السفر،^(٣٠) وكذلك تفعل النسوة عند اللقاء، ويقوم الرجال بكشف رؤوسهم لبعضهم البعض عند إلقاء السلام وهي من علامات الاحترام والتقدير، وأما الرفيع منهم فلا يسلم على "الوضيع"، بل يكتفي من وضع يده على قلنسوته، وفي هذا تمييز بين الناس في المجتمع الإيطالي، وإذا دخل أحدهم على آخر في مجلسه فهو يكشف رأسه أيضاً إلا مَنْ كان مريضاً.

٣/٣- اللباس في إيطاليا

تعتبر مسألة اللباس من أنماط العيش التي تميز المجتمعات، وفي إيطاليا لهم ألبسة متميزة على المجتمعات العربية الإسلامية غير أنها شبيهة بلباس بقية المجتمعات الغربية، حيث يلبس الرجل في إيطاليا قميصاً وسروالاً وصدرية تسمى "جيلي" أو سترة ترجمها محمد بيرم الخامس على أنها جبة، ولكنها في الحقيقة لا تشبه الجبة بالمعنى الموجود عندنا، وإنما هو لباس أفرنجي لا علاقة له بلباسنا التقليدي فهي عادةً ما تكون مفتوحة قليلاً من الأسفل وقصيرة تصل إلى فخذ الرجل،

بتقديم تقرير يشرح فيه أسباب التأخير الذي يجب أن يكون اضطرارياً أو تتعرض الباخرة إلى عقوبة مالية عن التأخير، وعادة ما تكون مواعيد الرتل أو الباخرة المقلدة للبريد مضبوطة، لذلك يفضل الناس السفر مع هذه الوسائل لتفادي التأخير ومضيعة الوقت، وعادةً ما تكون بواخر نقل البريد آتقن وأنظف من بقية البواخر، وأقل ازدحاماً، وأرفق خدمة.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية في إيطاليا: (فسيفساء من الديانات والمذاهب ودور هام للمرأة)

١/٣- الديانات والمذاهب

يبلغ عدد سكان إيطاليا سنة (١٢٩٨ هجري / ١٨٨١ ميلادي) ٢٩ مليون نسمة،^(٣١) و ينحدر المجتمع الإيطالي من أصول المشرق والشمال، حيث توافدوا على البلد عبر موجات هجرية عبر التاريخ وهم ذووا لون أبيض يميل إلى السمرة القليلة - هو تقريباً نفس لون أغلبية الشعب التونسي- وأقوياء.^(٣٢) وقد عرفوا بالعمل حسب محمد بيرم الخامس، ويعتبر أهل الشمال أكثر تحضرًا من الجنوب والوسط -حسب ما جاء في صفوة الاعتبار- والذين وصفهم محمد بيرم الخامس بالسذاجة القرية من التوحش.^(٣٣) وأما ديانة أغلبية المجتمع الإيطالي فهي النصرانية على المذهب الكاثوليكي، وهو مذهب الدولة الرسمي^(٣٤) باستثناء (٣٥) ألف من السكان هم على المذهب البروتستنتي،^(٣٥) بينما يعتنق (٣٣) ألف من الشعب اليهودية، و(٦٠) ألفاً هم من جنس الأرناؤوط،^(٣٦) غير أن هناك من الشعب الإيطالي مَنْ لا يؤمن ولا يعتقد في الديانات، وهم أساساً مَمَّنْ تقنوا في العلوم الرياضية ظناً منهم - حسب ما وصلنا من محمد بيرم الخامس - أنها - أي الديانات - مردودة بالعقل، غير أن هناك فئة أخرى عبر عنها بيرم الخامس بالعقلاء تفر بالخلق، وهو ما يعني أن مشكلة الخلق والقضاء والقدر ووجود الله مطروحة في المجتمعات الغربية لاسيما إيطاليا، مثل ما هي مطروحة أيضاً في المجتمعات المشرقية بما ذلك المسلمة.

٢/٣- عادات وصفات الإيطاليين حسب "صفوة الاعتبار"

يقسم محمد بيرم الخامس المجتمع الإيطالي إلى متحضر ومتوحش -كما سبق وأن ذكرنا- أو إلى سكان المدن والقرى، ويرى أن سكان المدن مهذبون، بينما وصف سكان القرى والبادي بالخشونة، ولكنهم جميعاً أهل عمل وموظبون في أعمالهم، كما يقسم المجتمع الإيطالي إلى عامة الناس مَمَّنْ يمارسون العمل البدني الذين يتميزون بالتبكير في انطلاق أعمالهم، وهي أساساً أعمال بدنية أي تعتمد على الساعد، وفئة مترفة يقضون لياليهم في السهر، حيث تتم دعوة الأصدقاء للسمر والرقص في المنازل والعشاء وتقديم الفواكه، والحلويات، والخمر، ويقضون نهارهم في النوم، ولا يذهبون إلى أعمالهم إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين، أو عند الزوال. ويضيف صاحب الصفوة أن هذه الفئة تتميز بقله حياؤها خلافاً للمجتمع التونسي،

باليشيين، وهي من علامات الفخر، وبالتالي بإمكان الناظر تمييز المجتمع الإيطالي من الرجال من خلال اللباس وفي هذا طبقيّة واضحة.

٤/٣- النمط الغذائي في إيطاليا

وصف لنا محمد بيرم الخامس عادات الأكل عند الإيطاليين في المطاعم على ما يبدو لا في المنازل، حيث أن من عاداتهم في القرن التاسع عشر في الأكل هو استعمال موائد مرتفعة (تقريباً شبيهة بما لدينا اليوم) ويقصد محمد بيرم الخامس طاولات، وهي مختلفة عن عادات المسلمين في تلك الفترة الذين يعتمدون على الجلسة^(٣٢) -بكسر الجيم- التقليدية على الحصير للأكل (عملية التربع) أي الجلوس على الأرض وثني الرجلين، وتكون هذه الطاوات مغطاة برداء أبيض، وكل واحد أمامه صحن خاص به فارغ عكس عادات المسلمين والعرب المتمثلة في اشتراك كافة الأسرة في صحن واحد كبير يأتي مملوء بالطعام، ويتولى الخادم بتقديم الطعام إلى كل واحد عن حده يتولى أخذ ما يلزمه من الطعام، وعند كل صحن تجد بطاقة تحمل أنواع الطعام الموجود، كما يعتمد الإيطاليون في أكلهم على الملعقة والشوكة والسكين عكس المجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة الذي كان يعتمد في أغلبه على الأكل بواسطة اليد، وأما نوع الشراب المصاحب للأكل فهو الخمر، وذكر لنا بيرم الشنابانيا، كما يُقدم للضيف الحلويات والفواكه والجبن. وأما الطعام فقد عدده محمد بيرم الخامس في الباب الذي خصصه لوصف إيطاليا وأحسنها حسب تعبيره المشوي، وتوجد على المائدة الملح والفلل الأسود، والخل، والزيت حتى يستعمله الضيف.

٥/٣- المرأة في المجتمع الإيطالي

ترتدي المرأة الإيطالية لباساً يكشف وجهها، وتلعب المرأة دوراً هاماً في المجتمع الإيطالي نظراً لمشاركتها الرجل في العمل غير الشاق الذي يبقى من مشمولات هذا الأخير، كما تتلقى المرأة التعليم وتصل إلى مراتب عليا فيه، فالمجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر هو مجتمع متفتح يولي للمرأة أهمية قصوى شأنها شأن الرجل عكس المجتمع العربي ومنه التونسي الذي يرى في المرأة مجرد عبد في خدمة الرجل في تلك الفترة حيث لا تتلقى تعليمًا ولا تشارك الرجل في العمل باستثناء الأعمال المنزلية والفلاحية في الأرياف وهو ما أحر نوعاً ما تقدم المجتمعات العربية، ويعود منع المرأة العربية من الخروج للشارع وحجبها حسب المجتمعات الإيطالية إلى طباع المسلمين المتسمة بالخيانة^(٣٣)، وهو تبرير غير مقنع حسب رأي باعتبار أن حجب المرأة كان نتيجة لتطبيع تعاليم الديانة الإسلامية التي أمرت المرأة بالتستر وحجب الوجه اتقاء للإثارة وبالتالي للفتنة ومحافظة على عفتها.

وهو الموقف نفسه الذي يتخذه محمد بيرم الخامس الذي دعا في صفوة الاعتبار إلى الحجب واعتبره أمراً طبيعياً للبشر

ذات يدين ضيقتين، ويكون السروال طويلاً إلى أسفل القدم، وضيق وكأنه ملتصق على جسده، وفي الشتاء يضيفون إلى ذلك اللباس جبة أوسع من الأولى وأطول، وفي بعض الأحيان تكون مبطنة، ويلبس البعض قمصاناً من الصوف، كما يلبس الرجل جوارب في قدميه، وهي من القطن أو الصوف، وحذاء شبيه بالخف الضيق، ويضع الرجل على رأسه قلنسة (طربوش) تكون مصنوعة إما من السعف أو التبن، وهذه الألبسة الضيقة تعرقلهم من الجلوس على الأرض لذلك فهم لا يجلسون إلا على الكراسي.

و في المنزل يلبس الرجل جبة واسعة ذات ألوان جُعلت للمنزل للأوقات التي لا يخرجون فيها ولا يأتيهم فيها أحد، وتكون الألبسة في غالبها ذات لون أسود أو ما شابهه باستثناء القمصان والجوارب، وأغلبها مصنوعة من الصوف ولا يلبسون الحرير إلا نادراً، ويلبس الرجل في يده قفازاً أسوداً أو ذا لون مشابه، لكن السؤال المطروح هو لماذا اللون الأسود بالذات ؟ كما يلبس الإيطاليون رابطة العنق وهو نوع من الأناقة التي يتبعها الأوروبيون عامةً، ويعرف الإيطاليون بالحرص على نظافة ملابسهم لاسيما رقاب قمصانهم التي غالباً ما تكون من اللون الأبيض، كما عرف الإيطاليون لاسيما الرجال منهم بإرسال شعورهم إلى مستوى أسفل الأذنين "شحمة الأذن"^(٣٤)، كما يتفنن الرجال في ذقنهم فتارة يحلقونها كاملة، وتارة يبقون عليها، وأخرى يحلقون جزء ويتركون الجزء الآخر.

أما لباس المرأة عند الإيطاليين - حسب وصف محمد بيرم الخامس- فيتمثل في قميص وسراويل واسعة مصنوعة من الكتان، وصدريّة مضبوطة على الصدر، وفوق كل ذلك جبة طويلة تصل إلى أحمص القدمين أو تفوقه، وجوارب وأحذية ذات أعقاب عالية، وفي بعض الأحيان تزيد المرأة رداء عند خروجها إلى الشارع، وهنا تستوقفنا ملاحظة: إذا كان محمد بيرم الخامس قد شاهد المرأة الإيطالية في الشارع وهذا طبيعي باعتبار أنه في بلد يتميز بحرية المرأة التامة، فكيف تمكن الرجل من مشاهدتها في منزلها ؟ أم تراه وصفها بناءً على ما روي له ؟

كما تستعمل المرأة الإيطالية عند الخروج خميراً شفافاً الهدف منه ليس ستر الوجه على الطريقة الإسلامية وإنما غايتها التزين، كما تلبس قلانس مزينة بالأزهار الاصطناعية، والقفاز والحلي والمجوهرات، وتميل المرأة الإيطالية كما الرجل أيضاً إلى اللون الأسود في لباسها، وكذلك الأبيض، وأما نوعية اللباس الرسمي ويقصد رجال السياسة والأعيان الذين عبر عنهم بأصحاب الوظائف من الرجال، فهو اللباس نفسه الذي تقدم وصفه مع اختلاف في السترة التي تكون مقفولة إلى الصدر وتصل إلى الخصر ومطرزة بالذهب أو الفضة على الصدر والعنق واليد والظهر حسب الرتبة، كما تختلف سراويلهم وقلانسهم على العامة بكونها من شرطان من القصب، ويتميزون على البقية

رابعاً: الفنون والمعارف في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر من خلال "صفوة الاعتبار"

١/٤- الفن في إيطاليا من خلال "صفوة الاعتبار"

لم يظن محمد بيرم الخامس في الحديث عن الفنون في إيطاليا خلال القرن التاسع عشر، وإنما اقتصر في معرض وصفه للمجتمع الإيطالي وعاداته على الموسيقى التي تنتشر في بلد إيطاليا، وتمثل في آلات نفخ ذات أوتار، حيث كان الإيطاليون يراعون في هذا النوع من الفن، وهذا الفن على ما يبدو يشبه المزارع عندنا مع اختلاف في الأوتار، وأما الألحان حسب محمد بيرم الخامس فهي تشبه الألحان الأوروبية، وتختلف عن الألحان الشرقية والعربية وأفريقيا الشمالية، ويتبع العازف ورقة أمامه بمثابة الدليل، وأما أهل البادية فلهم مزامير خاصة مصنوعة من الجلود، وهنا الأمر يحيلنا على الإنتاج الحيواني في ريف إيطاليا ويتم النفخ فيها دون إتباع أوراق، وهنا ربما يشبه آلة "المزود" عندنا.

٢/٤- مجتمع يحترم المعارف والعلم

عرف المجتمع الإيطالي بمعارفه الكثيرة وخاصةً المعارف الدينية أي المختصة في الدين المسيحي والتي تجد رواجاً كبيراً في إيطاليا القرن التاسع عشر، غير أن القانون يمنع النشاط الديني داخل المدارس خوفاً من الخلط بين التعاليم الدينية والتعاليم السياسية، وهنا حرص من المملكة على التفريق بين السياسة والدين وهو أمر شهدته أوروبا عامة خلال الفترة الحديثة من خلال فكر التنوير حيث دعا فلاسفة التنوير^(٣٤) إلى استبدال الحق الإلهي بالعقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم على أساس أن الشعب هو مصدر السلطات، وبذلك عبروا عن اتفاقهم حول ضرورة الفصل بين الدين والدولة، وأرجعوا أصول الدولة إلى مصادر دنيوية، وجردوا الملوك من الهالة الإلهية التي نعموا بها قرونًا طويلة، كما نقدوا المعتقدات والأساطير والخرافات التي نسجتها الكنيسة طيلة العصور الوسطى.^(٣٥)

كما اشتهر المجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر بالعلوم الرياضية التي تقدموا فيها كثيرًا، ومن العلوم الأخرى الفنون والتجارة والفلاحة، وقد أبدع فيها خاصةً أهل الشمال، وكذلك علم جر الأثقال، وعلم الكيمياء، وعلم الطبيعيات، وعلم الطب خاصةً في بلد بيضة. وأما المنشآت التعليمية، فقد كانت متقدمة جدًا سواء من ناحية التكوين أو من الناحية المعمارية، حيث تجد البناء العمودي في تلك الفترة فالمدارس التي وصفها محمد بيرم الخامس تتكون من ثلاثة طوابق. كما اشتهرت إيطاليا بانتشار المطابع والصحف الخبيرة وخزائن الكتب (يقصد المكتبات العمومية)، ففيها (٤٩٣) خزانة كتب تحتوي على (٤٣٤٩٠٢٨١) مجلد من الكتب المطبوعة و(٣٣٠٠٥٧٠) من كتب الخط (يقصد المخطوطات)، ومن أهم المكتبات التي خصها محمد بيرم

والحيوانات، فالاختلاط بين الرجال والنساء والرقص والمداعبة- حسب محمد بيرم- تؤدي إلى حصول المكروه، واعتبر محمد بيرم الخامس أن حجب المرأة أمر ضروري لإنتاج مجتمع سوي طبقاً لتعاليم الدين الإسلامي بناءً على الآية التي تقول *لَوْلِيَضْرِبَنَّ يَحْمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ*، واعتبر أن كل بلاد حافظت على مثل هذه التعاليم قلت فيها الفاحشة بينما البلدان التي تحررت فيها المرأة وكشفت عن وجهها واختلطت بالرجل في الشوارع والأسواق والأماكن العمومية كثرت فيها الفاحشة، فهو يربط إذن فساد أو صلاح المجتمع بالمرأة، ويعتبر أن ما جاء في تعاليم الدين الإسلامي كفيل ببناء مجتمع سوي، ولكن الرجل نسي أنه في مجتمع مسيحي له عاداته وتقاليده، ولا يرى حرجًا في ممارستها، ولو كانت مرفوضة من قبل الحضارات والديانات الأخرى.

٦/٣- الزواج في إيطاليا

من بين العادات التي تطرق لها محمد بيرم الخامس في باب وصفه لإيطاليا عملية الزواج: كيف يتم التعرف على الزوجة أو الزوج؟ وكيف تتم عملية الزواج؟

عادةً ما يتم التعرف بين الزوجين في المواكب الأهلية أي التظاهرة العامة والوحيدة ألا وهي رأس السنة الميلادية، حيث يتم استدعاء بعضهم البعض للسمر في الملاهي والمنزهات والأماكن العمومية، وهناك يتم التعرف، وإذا تم التوافق بين الطرفين أي الرجل والمرأة وأعجب كل واحد بالآخر، يخطب الرجل والد الفتاة، وإذا تمت الموافقة تتم دعوة الأصدقاء، والأهالي لوليمة من الطعام تعقد للغرض، وفيها أيضًا الحلويات والخمور، وتكون الوليمة إما في المنزل أو في منازل المسافرين (النزل) مقابل ثمن يدفع لصاحب المحل، ويتكفل بالطعام إما الزوج المنتظر أو صاحب النزل مقابل ثمن يدفعه أيضًا، ويقدم والد الزوجة مهرًا للزوج المرتقب (مقدارًا من المال أو أملاك)، وهي عكس العادة الموجودة لدى المجتمع العربي الإسلامي حيث يقدم الزوج مهرًا لوالد الزوجة، وهي من تعاليم الإسلام، ثم يتوجه الجميع إلى الكنيسة أين يوجد القسيس الذي سيكتب لهما عقد القران، ويتكفل القسيس بأخذ خاتم من الذهب من إصبع الزوج ليدخله في إصبع الزوجة، ويرش عليهما ماء ويحصل الزواج، ويكون لباس العروسة من اللون الأبيض وتكون متحلية بالحلي. ولم يشر محمد بيرم الخامس إلى كتابة وثيقة الزواج بينهما، وإنما اكتفى بعد الوصف الذي قدمه في الكنيسة بالإشارة إلى سفر العروسين بعد تلقي والديهما التهاني في باب الكنيسة إلى أي بلد لقضاء فترة بعيدة عن بلدهما للترفيه هذا بالنسبة للميسورين، أما الفقراء فيستغنون عن السفر وتكفل الزوجة بتوفير أبسطها قبل الزواج، ويتكفل الرجل بتجهيز منزل الزوجية، ثم بعد الزواج يتكفل الزوج بكافة المصاريف المتعلقة بالبيت والزوجة، ويظل المهر الذي قدمه والدها لزوجها على ذمتها.

وساعات ومرايا وزرابي وأسرة، وتكون مزوقة ذات اعتناء كبير. وأما مساكن الأثرياء والأغنياء فلا تتجاوز الثلاث طوابق أو أربعة، ومنهم من يقطن في الديار المشتركة أي العمارات، وتكون بيوت الأثرياء محروسة ببواب يتلقى أجره من جميع السكان هناك، كما توجد في المدينة الإيطالية "خنادق تحت الأرض" (٣٧) يقصد قنوات تصريف المياه، وتكون الأسطح مسنمة حتى لا تتأثر بفعل الثلوج خاصة في الجهات الشمالية، أما في الجهات الجنوبية، فتجد بعض الأسطح منبسطة، حيث يقل هناك تهطل الثلج.

ويعود تطور المعمار في إيطاليا وأوروبا عامةً إلى عصر النهضة الذي كانت إيطاليا فيه منطلقه لاسيما مدينة فلورنسا، وهي حركة ثقافية استمرت تقريبًا من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر، وأفرزت إبداعات فنية منها المعمارية، حيث برز في مجال فن العمارة الفلورنسي الإيطالي "فيليبو برنولسكي" (٣٨) الذي درس المباني الإغريقية القديمة، وشكلت أعماله نموذجًا هام لمباني عصر النهضة، وأشهر أعماله في مجال الهندسة المعمارية هو تصميمه وبنائه للقبة الكاتدرائية في مدينة فلورنسا، كما تم استخدام أنواع ترتيبات الرومان للأعمدة، فأبدع فنانو النهضة في مجال المعمار، كما في العلوم والفن وغيرها من المجالات.

خاتمة

من خلال ما تقدم؛ تتضح لنا أهمية كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" كمصدر مهم لدراسة تاريخ البلدان خاصة التي زارها محمد بيرم الخامس، حيث كان الرجل جغرافيًا أكثر منه مؤرخًا، ووصف لنا بدقة المدن التي زارها أثناء رحلة علاجه بنهجها، وأزقتها، وعمرانها، وعادات أهلها، وتقاليدهم، ونمط عيشهم، فلم يترك ولو جزئية صغيرة لم يتطرق إليها، وما إيطاليا إلا نموذجًا من بقية البلدان التي وصفها محمد بيرم الخامس مثل الجزائر وباريس، وغيرها من المدن، فكان محمد بيرم الخامس مؤرخًا وعالم جغرافيا وعالم اجتماع ورحالة، وهو أمر قلما نجده لدى بعض الكتاب الآخرين، فكان مؤلفه جامعًا ومفيدًا خاصةً وأنه كتب بأسلوب غير معقد مما يسهل على القارئ مهما كان مستواه قراءته والاستفادة منه، ولا بد من الإشارة إلى؛ أن هذا المؤلف ما كان ليوجد لولا مرض محمد بيرم الخامس وسفره لتلقي العلاج، فكان المرض سببًا في كتابة أهم مصدر في التاريخ الحديث.

الخامس بالذكر مكتبة الفاتيكان التي تحتوي على (٣٠٠٠٠) كتاب وهي من أحسن المكاتب من حيث حسن كتابة الخط. (٣٦) من خلال هذه المعلومات يتبين لنا أهمية المعرفة والعلم لدى المجتمع الإيطالي في القرن التاسع عشر من ناحية، ومدى اهتمام محمد بيرم الخامس بهذا المجال من خلال تصفحه للكتب وزيارته للمكتبات رغم مرضه، فسفر الرجل كان لغاية التداوي، ولكنه استغل وجوده ليبدو لنا كتابًا جامعًا يصور لنا المجتمع الإيطالي والحياة بصفة عامة، والاقتصاد والسياسة، فلم يترك مجالًا لم يتطرق إليه ليترك لنا قيمة علمية للتعرف من خلالها على الشعوب الأوروبية على الأقل التي زارها.

٣/٤- المدينة الإيطالية: حياة عمرانية متطورة جدًا

لم يقتصر محمد بيرم الخامس على وصف العادات والتقاليد للمجتمع الإيطالي خلال القرن التاسع عشر أو الاقتصاد الإيطالي، وإنما وصف لنا أيضًا المدينة الإيطالية بنهجها وأزقتها، وهو تمشي دأب عليه الرجل في كل مدينة يزورها، فالمدينة الإيطالية تنقسم إلى صنفين أول حضري، وتتسم بشوارع مهيأة صناعيًا (يقصد معبدة)، ومتسعة حيث أن أغلبها يتسع لعجلتان (أي عربتان)، ومنها ما هو أوسع، وثان قديمة أي عتيقة ذات طرقات ضيقة لا تتسع إلا للمتزلج، وهذا يذكرنا بالمدينة في تونس لاسيما العتيقة. وتتميز المدينة الإيطالية بارتفاع مبانيها، حيث تجد منازل ذات طابقين وسبع طوابق وثمانية، وهو ما يفسر التطور العمراني الذي تشهده إيطاليا في تلك الفترة، كما تنتشر في المدن الإيطالية الحدائق العمومية حيث يولي المجتمع الإيطالي أهمية بالغة للبيئة وتشييد المباني حسب أمثلة هندسية يرسمها مهندسون من المجلس البلدي حرصًا من المملكة على حسن مظهر المدينة.

وأما هندسة المنزل، فهي كالآتي: عند دخولك من الباب الرئيس تجد سقيفة ثم درجًا متصلًا بعضها ببعض متصاعدة على شكل دائرة (مصعد) أو مربعة، وفي كل طابق تجد فسحة ذات أبواب، ويحتوي المنزل على بيوت ومطبخ ومستراح، وبعض البيوت بها مستراحًا إضافيًا وتكون الجدران مطلية أي مزوقة بالدهن، وعادةً ما يكون سقف المنزل إما خشبًا أو بناء مزوقة بالدهن، وكل بيت به طواقي (يقصد نوافذ صغيرة نستعمل نحن هذا المصطلح فنقول طاق)، وتكون الأبواب من الخشب، والمنزل مبلط إما بالجليز، أو المرمر، وكذلك الشأن بالنسبة للدرج (المصعد)، وهذا أمر طبيعي، فمحمد بيرم الخامس أخبرنا على إنتاج إيطاليا للجليز والرخام والمرمر. وتبنى المنازل من مواد البناء الموجودة في كل بلد من المملكة، أي أن كل بلد تقتصر على ما لديها من إنتاج للقيام بعملية التشييد.

وأما البيوت فهي تميل إلى شكل المربع، وتكون تركيبة المنزل على النحو التالي: بيت للجلوس وآخر للأكل، وهي أكبر البيوت مساحة، ثم بيت للنوم تكون مجهزة بكراسي كبار، وصغار

الكنيسة البروتستانتية هي كنيسة ذات فكر واحد بل من المستحيل قول ذلك، فكنيسة مارتن لوثر قريبة جدًا من الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولكنها تعتقد أنه تم إصلاحها حسب رأي لوثر الشخصي وتؤمن بتحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح والكثير من الطقوس واللاهوت الكاثوليكي، أما الفكر الذي نشره جون كالفن فهو من يروج فكرة عدم فقدان الخلاص وأنه لا حاجة إلى كنيسة بل الكنيسة هي غير مرئية، ومنه تفرعت أفكار كنائس مختلفة مثل الكنيسة المعمدانية التي تؤمن أن الإنسان مخلص فقط بنعمة المسيح، ولكن الكنيسة الانغليكانية التي تعتبر أيضًا جزء من الحركة البروتستانتية هي الكنيسة الكاثوليكية التي لا تعترف بسلطة البابا، الكنيسة الميثودية هي الكنيسة الانغليكانية التي تم إصلاحها وهي نفسها انقسمت لأكثر من تيار، ولهذا فإن الفارئ يكتشف أن البروتستانتية لا تمثل تيارًا واحدًا بل عدة تيارات تصل بين (٢٨) إلى (٤٠) ألف كنيسة وسبب كثرة مذاهبها أو انعدام السلطة فيها بعكس الكنائس الرسولية فكثير منها يعتمد على التفسير الشخصي.

(٢٦) **الأرناؤوط:** وهو في الأصل اسم يطلق على سكان ألبانيا بلاد البلقان والواقعة على بحر الأدرياتيكي بعد اليونان كان ينطق ارناؤودس باللغة اليونانية، ثم حور إلى أرناؤوط بالتركية، ومع الفتح العثماني للبلاد العربية هاجر الكثير من أبناء هذه القومية شأنهم شأن الشركس والبوشناق والأبازة إلى أنحاء الإبلات العثمانية وقد استوطنوها واندمجوا مع السكان ولا يزال بعضهم يحتفظون بلقبهم الأرناؤوطي، ولذا نجد الاسم في سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، ومصر، وتونس، والجزائر، وليبيا، وها هو محمد بيرم الخامس ينبئنا عن وجوده في إيطاليا.

(٢٧) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٤٦.

(٢٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، ط ١، ج ٣، ص ٤٦.

(٢٩) المصدر نفسه، مص س، ص ٤٧.

(٣٠) من عادات بعض شعوب الخليج العربي تقبيل الأنف.

(٣١) الخامس (محمد بيرم)، **الصفوة ...** مص س، ص ٥٨، الشحمة تستعمل في اللهجة العامية التونسية والمقصود بها أسفل الأذن.

(٣٢) اسم هيئة.

(٣٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار...** مص س، ص ٤٦.

(٣٤) أبرز فلاسفة التنوير هم جون جاك روسو (فرنسي الأصل)، مونتسكيو، ديدرو (فرنسي)، جون لوك (أنكليزي)، امانويل كانط (بروسي)، فولتير، رونيه ديكرت (فرنسي).

(٣٥) **انظر:** مونتسكيو، **روح القوانين**، وجون جاك روسو، **العقد الاجتماعي**، وفولتير (فرنسي)، **القاموس الفلسفي**، نشر فلمازيون ١٧٦٤، ص ١٩٠.

(٣٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار...** مص س، ص ٥٥.

(٣٧) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار...** مص س، ص ٥٧.

(٣٨) **فيليبو برنوليسكي (Filippo Brunelleschi)**، (١٤٤٦ - ١٣٧٧)، معماري ومهندس ورسام ونحات وسينوغرافي.

(٣٩) اعتمد **فنانو** عصر النهضة الأوروبية على الكتابات القديمة لاسيما الإغريقية من خلال ترجمتها والاستفادة منها وتطويرها.

(١) **محمد بيرم الخامس:** ولد في تونس في مارس (١٨٤٠ ميلادي/ ١٢٥٦ هجري) وتوفي في حلوان المصرية في ديسمبر (١٨٨٩ ميلادي/ ١٣٠٧ هجري)، أشرف خلال وزارة خير الدين باشا على جمعية الأحياس منذ ١٨٧٤ وساهم في تنظيم التعليم بالمدرسة الصادقية عند تأسيسها سنة ١٨٧٥ وفي إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وإصلاح المحاكم الشرعية، كلفه خير الدين سنة ١٨٧٥ بإدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد، سافر إلى أوروبا ولما استولى الفرنسيون على تونس هجر بلاده متجها إلى الأستانة ومكث فيها فترة من الزمن حتى توجه إلى مصر سنة ١٣٠٢هـ، وهناك أنشأ جريدة «الإعلام» أو «الإعلام بحوادث الأيام» ومقتضى المقام بعلوم الإسلام ونصائح الأنام» منذ سنة ١٨٨٥ والتي استمرت قرابة أربعة أعوام والتي توقفت عن الصدور بتوليه منصب القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية. من أهم مؤلفاته: كتاب رحلته «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» في خمس أجزاء، و«تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص»، و«التحقيق في مسألة الرقيق»، و«الروضة السنوية في الفتاوى البيرومية».

(٢) يتكون كتاب «**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**» من خمس أجزاء تطرق فيها محمد بيرم الخامس إلى وصف العديد من البلدان العربية والإسلامية والأوروبية.

(٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، الجزء (٣)، دار صادر، بيروت، ط ١ بالمطبعة الإعلامية بمصر، ١٣٠٢ هجري، ص ٢.

(٤) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، ج ٣، مص س، ص ٢٨.

(٥) الميل يساوي قرابة ١.٨ كيلومترًا.

(٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ج ٣، ص ٢٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ج ٣، ص ٢٩.

(٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩.

(١٠) نفسه، ص ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥.

(١١) نفسه، ص ٣٠.

(١٢) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار ...** مص س، ص ٥٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٤) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(١٦) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣١.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٥٦.

(١٩) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٥٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢١) عدد سكان إيطاليا الآن حوالي (٦٠) مليون نسمة.

(٢٢) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٤٦.

(٢٣) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار**، مص س، ص ٣٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٢٥) **البروتستانتية:** هي أحد مذاهب الدين المسيحي، ويوجد حوالي (٨٠٠) مليون بروتستانت حول العالم من بين ٢.٥ مليار مسيحي، (١٧٠) مليون منهم في أمريكا الشمالية، و(١٦٠) مليون في إفريقيا، و(١٢٠) مليون في أوروبا، و(٧٠) مليون في أمريكا اللاتينية، و(٦٠) مليون في آسيا، و(١٠) مليون في أستراليا. نشأت البروتستانتية على يد مارتن لوثر في ألمانيا، وقد انشقت الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، تفرع منها العديد من الكنائس الأخرى تتراوح من (٢٨) و(٤٠) ألف كنيسة، ومذهب البروتستانتية هي مذهب عدد من الدول الغربية. كما أن للبروتستانتية أثرًا قويًا في التاريخ الثقافي والسياسي لتلك الأقطار. من الصعب القول أن